القرآن ودوره في نهوض الأمة الإسلامية*

د. زمخشري بن حسب الله طيب

عضو هيئة التدريس بكلية الدراسات الإسلامية جامعة دارماونسا

dr.zamakhsyari@dharmawangsa.ac.id

ملخص البحث

يهدف هذا البحث إلى إبراز دور القرآن في تغيير أوضاع البشرية قبل نزوله التي ساد فيها التناحر بين الإخوة، والعصبية العمياء، و الانحلال الخلقي، وقسوة القلوب، وسيادة الطواغيت، والظلم واضطهاد الضعفاء والمستضعفين إلى وضع متميز رشيد، حيث انتقلت الأمة من رعي الغنم إلى قيادة الأمم. أشار البحث إلى أن هجر المسلمين في العصر الحاضر هو السبب الرئيس في تخلف الأمة وبعدها عن دورها الريادي كما هو معهود عليها في السابق. وأكدّ البحث أن من إسهامات الأقرآن المهمة في عملية نهضة الأمة هي نشر الوعي بسنن الله في النهوض والسقوط والتغيير، وزرع الأمل بظهور جيل النصر المنشود بمعالمها الواضحة، كما أن القرآن أشار إلى خطوات العمل التي يمكن من خلالها القيام بدور فعال من أجل نهضة الأمة

الكلمة المفتاحية:

القرآن، نهضة الأمة، جيل النصر، سنن الله في النهوض

* مقالة مقدمة في المؤتمر العالمي تحت موضوع: دور القرآن في نهضة الأمة التي يعقدها كلية الدراسات الإسلامية جامعة دارماونسا بالتعاون مع جامعة السنة الإسلامية بتاريخ 28 يناير 2018 م في قاعة جامعة دارماونسا

المقدمة

يشهد التاريخ البشري أثر القرآن في نهوض الأمة، من خلال النظر في أحوال العرب قبل نـــزول هذا الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم مقارنتها بأحوالهم بعد مضي أقل من ربع قرن فقط. يتفق الجميع بأن هناك فرقاً عظيماً ما بين الحالتين، حيث انتقلت الأمة من رعي الغنم إلى قيادة الأمم.

والناظر المنصف لحال الأمة حين هجرت هذا القرآن: تلاوةً ، وتدبراً ، وعملاً ، وتحاكماً، سيعلم علم اليقين كيف انحدرت في مهاوي الذل، ودركات الهوان! وليس هنتاك أدنى صعوبة في البرهنة على ذلك، بل يكفي أن يحيل إلى واقع العالم الإسلامي اليوم: اجتماعياً ، وثقافياً، وسياسياً، وعسكرياً. صدق الله تعالى حين أخبرنا بان القرآن هو سبب عزتنا في الدنيا والآخرة حيث قال: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} [الزخرف : 44] .

هذه المقالة تحاول المساهمة في التنبيه على بعض هذه الوسائل في بيان أثر القرآن في نهوضِ الأمة، من التركيز على بيان الوسائل والطرق التي يتمكن بها المسلمون ــ إذا أرادوا ــ من النهوض بالأمة انطلاقاً من بوابة العز والشرف الأولى ــ القرآن ــ : {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} [الزخرف : 44] "وإنها لتبعة ضخمة تسأل عنها الأمة التي اختارها الله لدينه، واختارها لقيادة القافلة البشرية الشاردة، إذا هي تخلت عن الأمانة: {وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ}".[1]

حال البشرية قبل نزول القرآن

كانت البشرية في جميع أنحاء العالم، والعرب خاصة في الجزيرة العربية، تعيش في فترات حرجة من تاريخها، حيث كثير ما سادات في تلك الحالات الأوضاع الغير المناسبة والائقة للفطرة البشرية، حيث سادت فيها الأحوال التالية:

- التناحر بين الإخوة

[1] . سيد قطب، في ظلال القرآن (3191/5).

- العصبية العمياء
- الانحلال الخلقي
- قسوة القلوب
- سيادة الطواغيت
- الظلم واضطهاد الضعفاء والمستضعفين

لقد عرف الناس من السيرة النبوية أنه صلى الله عليه وسلم كان يُعرف بين قومه وعشيرته بالصادق الأمين قبل نزول الوحي عليه، وعرفه قومه بأحسن الخلق. ولكن الجدير بالذكر أن هذا النقاء والصفاء، وتلك الروعة والتألق في حياته صلى الله عليه وسلم لم تكن شيئاً يذكر بالنسبة إلى حياته بعد نـــزول الوحي. وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى في قوله تعالى: {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى}!

انظر كيف كان عليه الصلاة والسلام حين انقطع الوحي عنه فترة من الزمن، جعلت ألسنة أعدائه تتفوه بما تفوّهت به؛ فضاق لذلك صدره، وحزن لانقطاع الوحي الذي ذاق لذته. ومن هنا ندرك أن حال البشرية قبل نزول القرآن عليهم ينتشر فيهم الجهل ، والضلال، والعمى ، والحيرة ، والبؤس!

وقد اشار إلى هذا المعنى آيات كثيرة، منها: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا} [الأنعام : 122]!

وقوله تعالى: {الر كِتَابٌ أَنــزلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}[إبراهيم : 1]! والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً.

دور القرآن في تغيير سلوكيات الفرد والمجتمع

الباحثون وعلماء النفس عرفوا السلوك بتعريفات كثيرة ومختلفة منهم من قال (السلوك أخلاق الفرد وتعامله في حياته اليومية مع الأخرين)، فنقول فلان حسن السلوك.

وهناك تعريفات كثيرة من وجهه نظر المدرسة السلوكية التي تبنت هذا المصطلح وتعرفه علي أنه نشاطا بيئيا يصدر نتيجة علاقة الإنسان بالبيئة ومجموعة من الاستجابات. وهناك نوعين من السلوك: سلوك إرادي الذي يصدر عن الإنسان نتيجة لعوامل وراثية وبيئية معا؛ والسلوك لا إرادي وهو سلوك نتيجة مثير ما، كأن تسحب يدك فجأة إذا لامست النار.

أما السلوك من منظور إسلامي فهو النشاط المستمد من كتاب الله سبحانه وتعالي وسنة نبيه عليه السلام ,ويعبر عن السلوك في القرآن (بالعمل الصالح)

منذ أول نزوله، عدل القرآن سلوكيات البشرية، سواء كانت في حياة الفرد والمجتمع. كان الفرد قبل نزول القرآن يغيب عن الوعي من كثرة شرب الخمر ولا يعي ما يفعل من سلوكيات وكيف كرمه الإسلام ووقره، ومن مجتمع يأكل القوي فيه الضعيف، و قبائل تغير علي بعضها وتجور. وحينما أنزل القرآن، غير هذه السلوكيات ونهى عن هذه العادات، ورسخ قاعدة الناس سواسية لا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوي. و حرر المرأة، وأعتق الرقاب و جعل المسلم حر في سلوكياته وأفعاله، ولكن حر في نطاق الدين وما أمر به متجنبا ما نهي الدين عنه.

كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل الإسلام قاسي القلب به غلظة وقسوة علي الإسلام حتي قيل عنه لا يسلم حتي يسلم حماره وكيف عدل وغير الإسلام في سلوكه مما كان له الأثر الطيب في تقوية الإسلام وشوكة المسلمين ضد الكفر. فكان رقيق القلب أشد خوفا من الله خاشعا قوياً في الحق. وإذا رأى الباطل (المثير) تأتي الاستجابة فورا فيثور عليه مدافعا عن الحق, سلوك لا إرادي نابع من داخله , سلوكيات صنفت ووضعت في وضعها الصحيح ,سلوكيات تعلمها وتتلمذ عليها هو والصحابة رضوان الله عليهم في المدرسة السلوكية المحمدية , يحمل الدقيق على كتفه ويقول له غلامه أحمل عنك أم عليك يا أمير المؤمنين! فيقول احمل عليّ. أتحمل عني أوزاري يوم القيامة؟أفعال وسلوكيات ليست وراثيه .

أزمة الأمة تبدأ من خلال هجرها للقرآن

وفي القديم عانى النبيُّ الكريم صلّى الله عليه وسلّم ما عاناه من جفاء قومه الذين لم يتّبعوه ولم ينقادوا لدعوته المباركة، وكانت لهم أساليبهم التي واجهوا بها النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم؛ من ذلك: إعراضهم عن كتاب الله، فكانوا إذا تُليت عليهم الآيات القرآنية في مختلف الأماكن العامَّة والخاصَّة ولّوا وأعرضوا عنها وتصامموا - وما بهم من صمم - مستكبرين عن قبولها والانقياد لها.

بل أدّى بهم الحال إلى أن يوصي كبيرُهم صغيرَهم، وغنيُّهم فقيرَهم، وحاضرُهم باديهم بعدم الاستماع لهذا القرآن ابتداءً؛ لأنَّهم على يقين أنَّ كلَّ مَنْ استمع لهذا القرآن متجرِّداً من الموانع والهوى سيقوده استماعه إلى الإيمان بالقرآن العظيم والانقياد له، وهذا ما لا يُريدونه ولا يتمنّونه.

ومن شِدَّة كراهيتهم للآيات التي تُتلى عليهم أحياناً يتملَّكُهم الغضب والكراهية المؤدِّية إلى عُبوس الوجوه وتقطيبها، ويكاد أن يتحوَّل هذا الشُّعور إلى الفتك بمن يقرأ عليهم القرآن الكريم.

ومن أعظم الآيات التي تحدَّثت عن جفاء الكفَّار وإعراضهم عن كتاب الله تعالى، حتّى وصل الحال إلى شكوى عظيمة يبثُّها النَّبي صلّى الله عليه وسلّم إلى ربِّه عزَّ وجلَّ بسبب هجر قومه للقرآن العظيم، قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴾ [الفرقان: 30]. فقد أعرضوا عن القرآن العظيم وهجروه، وتركوه، مع أنَّ الواجب عليهم، الإيمانُ به، والانقياد لحكمه

وقد اختلف أهل العلم في تفسير معنى الهجر الذي ذكر في الاية السابقة بعدّة أقوالٍ منها:[2]

- من الهُجر؛ أي وصف القرآن بأوصافٍ ليست فيه، والقول السيء فيه بغير الحق؛ كالزعم بأنه سحرٌ أو شعرٌ، أو أساطير الأوّلين.
- إعراض المشركين عن القرآن الكريم، والابتعاد عنه وعن سماعه.
- ترك القرآن الكريم بالكلية، وعدم الالتفات لما فيه، وعدم الإيمان والتصديق الجازم به وبما جاء فيه، وترك العمل به، وعدم التأثّر بوعده ووعيده.

[2] . محمود الملّاح (2010)، فتح الرحمن في بيان هجر القرآن (الطبعة الأولى)، الرياض -المملكة العربية السعودية: ابن خزيمة للنشر، صفحة 19-22، جزء 1. بتصرّف.

- رفع الأصوات عند سماعه حتى لا يستمع فاعل ذلك لما فيه من الأحكام والإنذار والعظة.
- ترك تلاوة القرآن الكريم، وكلما تباعدت المدة بترك تلاوته تحقّق الهجر أكثر.

هناك أنواعٌ ومظاهر عديدة لهجر القرآن الكريم بعضها أشدٌّ من بعض، منها:[3]

- هجر سماعه والإصغاء إليه وعدم احترامه؛ بإكثار اللهو والكلام واللغو أثناء تلاوته.
- هجر العمل بما جاء به بعدم تطبيق أوامره واجتناب نواهيه؛ فالقرآن الكريم كتابٌ نزل حتى يكون منهج حياةٍ للمؤمن.
- هجر التحاكم إليه في أصول الدين؛ فقد وضع القرآن الكريم التشريعات اللازمة والمناسبة لحل الاختلافات بين الناس، وقد نهانا الله عز وجل عن الاحتكام لغير القرآن الكريم، فهو شريعة المؤمن ومنهاجه في دينه ودنياه.
- هجر تدبّره وفهمه؛ فقد أنزل الله القرآن الكريم لنا حتى نتدبّر ما فيه ونفهم معانيه ومقاصده، قال تعالى: (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ).(سورة طه، آية: 29.)
- هجر الاستشفاء والتداوي به؛ فقد نزل القرآن حتى يكون شفاء ورحمة للمؤمنين، قال تعالى: (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) (سورة الإسراء، آية: 82.)

القرآن شفاء لكل داء

هذه هي من أهم وأعظم قواعد التغيير بالقرآن، فهي تجعل المؤمن يزداد يقيناً بعظمة هذا القرآن، وأنه الكتاب الوحيد الذي يصلح لكل زمان ومكان، وبهذا اليقين وتلك القناعة ينطلق لتغيير ما فسد من واقع الناس!

[3] . محمد نصر الدين عويضة، فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب، صفحة 409-411، جزء 9

قال قتادة : ـــ مبيناً معنى هذه الآية والقاعدة القرآنية ـــ : "إن القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم: فأما دائكم فالذنوب والخطايا ، وأما دواؤكم فالاستغفار."[4]

وهذا التفسير فيه رسالة واضحة إلى شمول القرآن إلى علاج جميع الأدواء، وأن فيه جميع الأدوية، لكن يبقى الشأن في الباحثين عن تلك الأدوية في هذا القرآن العظيم.

"إنه يهدي للتي هي أقوم في ضبط التوازن بين ظاهر الإنسان وباطنه، وبين مشاعره وسلوكه، وبين عقيدته وعمله.. ويهدي للتي هي أقوم في عالم العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة، فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس من الوفاء، ولا تسهل وتترخص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار، ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال. ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض: أفراداً وأزواجاً، وحكومات وشعوباً، ودولاً وأجناساً، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والهوى؛ ولا تميل مع المودة والشنآن؛ ولا تصرفها المصالح والأغراض.. ويهدي للتي هي أقوم في تبني الديانات السماوية جميعها والربط بينها كلها ، وتعظيم مقدساتها وصيانة حرماتها، فإذا البشرية كلها بجميع عقائدها السماوية في سلام ووئام".[5]

ومن أراد أن يقف على شيء من محاولات العلماء في الوقوف على شيء من ذلك، فليقرأ ما كتبه العلامة الشنقيطي : في تفسيره لهذه الآية الكريمة، فقد كتب : نحواً من ستين صفحة وهو يتحدث عن نماذج عالجها القرآن، وهدى لأقوم الطرق في حلها.

يقول : "وهذه الآية الكريمة أجمل الله ـــ جل وعلا ـــ فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق، وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم؛ لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة، ولكننا ـــ إن شاء الله تعالى ـــ سنذكر جملاً وافرة في جهات مختلفة كثيرة من هدي القرآن للطريق التي هي أقوم ؛ بياناً لبعض ما أشارت إليه الآية الكريمة، تنبيها ببعضه على كله من المسائل العظام، والمسائل التي أنكرها الملحدون من

---

4 . جلال الدين السيوطي، الدر المنثور (245/5)

5 . سيد قطب، في ظلال القرآن (2215/4)

الكفار، وطعنوا بسببها في دين الإسلام، لقصور إدراكهم عن معرفة حكمها البالغة، ..."[6] ثم سرد ـــ رحمه الله ـــ جملة من المسائل العقدية والاجتماعية.

هذه تتجاوز في هدايتها حدود الزمان والمكان .. وتتجاوز كل الأنظمة والقوانين التي كانت قائمة والتي ستقوم بعد ذلك! إنها قاعدة تقطع الطريق على جميع المنهزمين والمتخاذلين من أهل الإسلام أو المنتسبين له، أو من الزنادقة ، الذين يظنون ـــ لجهلهم ـــ أن هذا القرآن إنما هو كتاب رقائق ومواعظ، ويعالج قضايا محدودة من الأحكام! أما القضايا الكبرى، كقضايا السياسة، والعلاقات الدولية، ونحوها، فإن القرآن ليس فيه ما يشفي في علاج هذه القضايا!!

وهذا الكلام فضلاً عن كونه خطيراً وقد يؤدي إلى الكفر، فإنه سوء أدب مع الله، ذلك أن ربنا ـــ وهو العليم الخبير ـــ يعلم حين أنـــزل القرآن أن العباد سيقبلون على متغيرات كثيرة، وانفتاح، وعلاقات، ومستجدات، فلم يتركهم هملاً، بل حفظ لهم هذا القرآن ليرجعو إلى هداياته، وحفظ لهم سنة نبيه ج لتكون شارحةً لما أجمل من قواعد القرآن، بل وجعل في السنة أحكاماً مستقلة، فمن أراد الهداية وجدها فيهما.

وعي أعداء الإسلام بخطورة تمسك المسلمين بقرآنهم

إنَّ الأمة الإسلاميَّة اليوم تعيش واقعًا متردِّيًا مُتَأزِّمًا خانقًا، تعيش وَضْعًا حضاريًّا مُخْتنقًا، وُضِعَ لها، وصُنِعَ لها صُنْعًا من قِبَل الطَّرف الآخر، هذا الوضع يَتَجَلَّى في مظاهر كثيرة:

- أولاً: ما نلحظه بشكل واضِح في ضعف انتماء أبنائها الحضاري للإسلام، وعلى عِدَّة مستويات:
  - على مُسْتوى المرجعيَّة الإسلامية: حيث نرى فئات عريضة من أبناء هذه الأمة تَعْتَزُّ بمرجعيَّات أُخْرَى مع ضعف صِلَتِها بالمرجعيَّة الإسلاميَّة، وضعف اعتزازها بها، وتعميق الصِّلَة بها.

[6] . محمد أمين الشنقيطي، أضواء البيان 3/17 - 54.

- على مُسْتَوى اللُّغة: حيث نلاحظ أنَّ هنالك ضَعْفًا خطيرًا في الاعتزاز باللُّغة العربية التي هي لغة الإسلام، واللغة التي جمعت تراثنا الإسلامي، وبها يمكن فقط أن نُعَبِّر بأن ذاتنا إسلامية، وأن نجلي مضامينا الإسلامية، وحقيقتنا، وحضارتنا، وهُويَّتنا الإسلاميَّة، فلا سبيل إلى بَلْورة ذاتنا إلا عن طريق لغتنا.
- على مُسْتَوى العادات: فَقَدْ أصبح هناك ضَعْفٌ وخَلْخَلَة في انتماء الأُمَّة الحضاري إلى دائرة الإسلام من جهة عاداته وتقاليده التي تعكس فِكْرة الإسلام، وتعكس مضمون الإسلام وقيمه، فللأُمَّة الإسلاميَّة مَوْروثٌ حضاريٌّ، وعادات وتقاليد، وأنماطٌ حياتيَّة عاشتها في فترات الإشراق، لكن نجد أن أبناء الأمة في واقعنا المعاصِر ليس لهم ارتباطٌ وثيقٌ بهذه العادات، ولا اعتزازَ لهم بالأساليب الحياتيَّة الأصيلة، والثقافة الإسلاميَّة البنَّاءَة التي ورثْنَاها.
- على مُسْتَوى النُّظم الحياتية: سواء على مُسْتوى النِّظَام السياسي، أو الاقتصادي، أو التربوي، أو التعليمي، أو على مُسْتوى النِّظام الاجتماعي، أو الخلقي؛ فعلى مُسْتَوى هذه النُّظُم الحياتيَّة كلها نلاحظ ضَعْفًا في الانتماء، والاعتزاز الحضاري إلى النظم الإسلامية، فأصول الشريعة الإسلامية ودُستور هذه الشريعة يتضمَّن التَّشْريعات السامية الراقية لهذه النظم، ولا يُعْجِزُ الإسْلامَ أبدًا شيءٌ من المُسْتَجَدَّات مما يَتَعَلَّق بهذه النُّظُم، ولكن نَجِد كما قُلْت في واقِعِنا المُعاصِر من مَظَاهر هذا التَّدَنِّي، ومن مظاهر ما تعرفه الأُمَّة من ذُلٍّ وهَوانٍ، ومن ضَعْف الثِّقَة بأن للإسلام نُظُمًا حياتيَّةً متينةً، ونُظُمًا تشريعيَّة قويَّة يمكن أن نَسْتَوْعِب بها كافَّة قضايا تنظيم واقعنا المعاصر.

- ثانيًا: هنالك ما نلاحظه مِنْ كَثْرَةِ التَّصَدُّعات، والتَّمزُّقات، والخِلافات داخل بناء الأمة، فالأمة الإسلاميَّة مُتَصَدِّعَة من داخلها، حُصُونُها الداخليَّة فيها كثير من التَّمَزُّقَات.
- ثالثا: أنَّ قاعدة الوَلاء والبراء قد انْكَسَرَتْ، فالقاعدة الشَّرعيَّة أن الأمة لها ذاتها، ولها سيادتها، ولها وضعها المتميز، وتحكمه هذه القاعدة وهي: أنَّ الأمة الإسلامية إنما تُعْطِي ولاءَها الكامل للإسلام والمسلمين – لله ورسوله وللمؤمنين – وأن عَلاقتها بمن يُعَادي الإسلام، وبمن يُحَارِب الإسلام، وبمن يريد أن يَقْتَلِع جذوره، عَلاقة واضِحَة أيضًا حَدَّدَها القرآن، فإذًا

هنالك ولاءٌ لله ولرسوله وللمؤمنين، وبراءٌ من كل من يُعَادي هذه الوِجْهَة. لكن نلاحظ أنَّ هذه القاعدة قدِ اختَلَّتْ، وأصابها ما أصابها من التَّصَدُّع والتَّمَزُّق أدَّى إلى تنازُلات كثيرة، وخطيرة في هذا المجال. فكل هذه الظواهر تُؤَكِّد أنَّ واقِعَ الأمَّة الإسلامية اليوم واقعٌ مُتَضَعْضِعٌ، واقعٌ مُسَوَّسٌ من داخله، فالبناء لم يعد كما كان، ونحن نعيش واقعًا هو امتداد لما قبله، ونعيش واقعًا صُنِعَ لنا صُنْعًا، بُنِيَ لنا في أرض غير أرضنا، بفكر غير فكرنا، وبناسٍ غير رِجَالنا.

والسبب في هذا الوضع المُتَأَزِّم هو ما وقع لبناء الأمة من تَغَيُّر، وما وقع في بنائها من تَلاشٍ وزَعْزَعَة؛ لأننا حينما ندرس تاريخ هذه الأمة، نجد أنها مَرَّت بمراحل تطور متباينة:

المرحلة الأولى: هي مرحلة البناء القَوِيِّ المُحْكَم يوم كانت هذه الأمة أمة بحق وحقيق، حينما بناها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن؛ فبناء هذه الأمة كان على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبإشرافه وبرعايته، وعلى عينه حينما بناها بالقرآن، وبقِيَم القرآن، وبمُحْتَوَى القُرْآن، وبأخْلاق القُرْآن.

المرحلة الثانية: ظلَّتِ الأُمَّة الإسلامية قرونًا وهي قويَّة مُتَماسِكَة، تُعْطِي وتنتج عطاءً إسلاميًّا ما زال بين أظهرنا إلى الآن، لكن نجد أنها قد مَرَّتْ بمرحلة أخرى هي مَرْحلة الضَّعْف الذي كان بسبب هجمة العدو الصَّلِيبي عليها، بحيث حينما تَفَرَّقَتْ كلماتُها، وانْسَاقَتْ وراء الدنيا، وتَقَسَّمَتْ، وانْشَقَّتْ - فكانت وِلايات وإمارات وجماعات؛ ظَنَّ - حينئذ - الغَرْب الصَّلِيبي ومن ورائه الصِّهْيَوْنِـــيَّة، أنَّ وضع الأمة الإسلاميَّة يومئذ صار فُرْصة للانْقِضَاض عليها، وإنهاء وجودها من التاريخ، واجْتِثَاث حضارتها بالمَرَّة، فَشَنَّ عليها حربه - التي أعلنها - مُقَدَّسة.

المرحلة الثالثة: ثم بعد ذلك، حتى بعد أنْ رَحَل الاستعمار، استطاع أن يَتْرك بذرته، حقيقةً أنه قد رَحَل وولَّى؛ ولكنه لم يَرْحَل إلا بشبحه وبشكله، تاركًا فِكْرَهُ، وأصوله، ومَدَنِيَّته، وما تُحَافِظُ به على شخصيته، ووجوده في البُلْدان المُسْتَعْمَرَة، تاركًا أتباعه، وخُدَّامه، وكثيرًا من جُنْدِه الذين يحمون فكره ووجوده.

فلذلك جاءت مَرْحَلَة التَّغْرِيب بعد الاحتلال، وأصبحت الأُمَّة الإسلامية تَنْظر إلى دينها بنظر الآخر، وتعيش دينها بالطريقة التي تُمْلى عليها، وتعيش ذاتها وحضارتها بالطريقة التي تُفْرَض عليها، فهذا إذًا في الحقيقة واقعٌ مَصْنوعٌ لها، والأمة الإسلامية التي تعاني هذا الوضع الذي هو مصنوع والذي هو مخطط له من قرون، لا خلاص لها منه – إن هي أرادت أن تَتَخَلَّص منه – لا سبيل إلى ذلك إلا عن طريق الوعي به، فالوعي بهذا الواقع وبمُكَوِّنات هذا الواقع، وبجذور هذا الواقع، وبالأصول التي انْبَنَى عليها هذا الواقع، وبالذين بَنَوْهُ، الوعي بهذا كله هو الخُطْوة الأولى إلى إعادة بناء الذَّات، وإلى استرجاع ما ضَاعَ من هذه الذَّات.

فربنا عز وجل يقول: ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد:11]، ولا يمكن لهذه الأمة أن تَسْتَرْجِع ما ضاع منها بين عَشِيَّة وضُحَاها، ولا بكلمة تُقَال باللِّسان، ولا بالأماني. يقول عز وجل: ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: 165]، ويقول عزَّ من قائل: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات: 171 - 173].

فينبغي لهذه الأمة أن تَرْجع إلى تكوين عنصر الجنديَّة الذي ضاع منها، لا يمكن أن ترجع هذه الأمة إلى سَالِف مجدها مِنْ غَيْر أن يكون فيها، ومِنْ غَيْر أن يكون بناؤُها بجنود يجعل الله على يَدِهم النَّصْرَ والغَلَبة، وذلك مَشْروط بقوله جل وعلا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد:7]، وقوله سبحانه: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: 160].

فهذه الآيات ومثلها تُحَدِّد القاعدة التي يمكن للأمة أن تُرْجِع – على ضَوْئها – مجدها، فلا يمكن إطلاقًا لهذه الأمة أن تَتَخَلَّص مما هي فيه، وأن تسترجع عزها وقوتها إلاَّ إذا أعادت بناءها، وإلا بقيت حيث كانت. فهذه الأمة لم تكن قوية إلاَّ بالقرآن، وبالبناء القرآني، ويوم تعود إلى القرآن وإلى البناء القرآني، فإنها تعود إلى قُوَّتها ومَجْدها.

كشف القرآن بمكر الأعداء

بين القرآن أن مكر الأعداء والكيد والتخطيط لمحاربة الدعوة والدعاة هي سنة من سنن الله الثابتة في هذه الحياة، ومَعلَم من معالم الصراع بين الحق والباطل في تاريخ الدعوة. قال تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}[الأنفال:30]. {وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[سـبأ:33]. وقال أيضًا: {وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}[إبراهيم:46]. وقال:{وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ}[الرعد:42]. كما قال سبحانه: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً}[الطارق:15-17]. فكل هذه النصوص القرآنية تؤكد ثبوت المكر والكيد لهذا الدين، كما تؤكد شدته واستمراريته.

أكد القرآن بضرورة التمسك بصلة الأخوة بين المؤمنين، وأن الكفار والمنافقين إنما هؤلاء الأعداء الذين لهم ألف مكر وحيل التي يجب على المؤمنين الحذر منهم، لأنهم متصفون بالخداع والمكر.

ومن كاد الله تعالى له ليس كمن كاد عليه، ومن مكر له ليس كمن مكر عليه، وفي قصة يوسف عليه السلام مع إخوته دلالة على ذلك، فيعقوب عليه السلام خاف على يوسف كيد إخوته ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ [يوسف:5] وهم جماعة أقوياء قد ﴿ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ [يوسف:102] ولكن الله تعالى مع يوسف ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ [يوسف:76] فانتصر يوسف الغلام الوحيد الضعيف على إخوته وهم كثر كبار أقوياء؛ لأن الله تعالى كاد ليوسف، ومكر له؛ ولذا كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم «رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ... » فمن مكر الله تعالى له انتصر

وغلب مهما كان ضعفه وقلته، ومن مكر الله تعالى عليه هزم وخاب وخسر مهما بلغت قوته وعدته وكثرته.

وهذا هو السر في أن مكر الكفار والمنافقين لا ينجح، ويرتد عليهم، رغم تكراره وكثرة الإنفاق عليه، والبراعة في التخطيط له وتنفيذه. وسبب ذلك: أن الله تعالى مطلع على سرهم، محيط بمكرهم، عالم بما يكيدون وما يمكرون؛ فمن كيده سبحانه بهم أنه يمضي لهم مكرهم وكيدهم، ويحققون به نجاحات تفرحهم، فيتمادى بهم مكرهم إلى غايتهم، حتى إذا كادوا أن يبلغوها قلب الله تعالى عليهم مكرهم، وأصابهم بكيدهم، ونجى المؤمنين من شرهم؛ ولولا ذلك -ومع كثرة كيدهم ومكرهم- لفني المسلمون مما لقوا من كيد أعدائهم في القديم والحديث. وفي هذا المعنى يقول الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف: 182- 183]. فتأملوا -عباد الله- سنة الاستدراج فيهم، وهي سنة تحتم تحقيق بعض مرادهم من أجل الإملاء لهم، وغرورهم بقوتهم، وتماديهم في طغيانهم؛ حتى إذا ظنوا أنهم تمكنوا من مرادهم؛ مكر الله تعالى بهم، وبدد سعيهم، وأذهب ريحهم، وشتت شملهم، وقلب مكرهم وكيدهم عليهم. وَكَيْدُ اللَّهِ تعالى قَوِيٌّ لَا انْفِلَاتَ مِنْهُ لِلْمَكِيدِ.

وبما أن الله تعالى عليم بسرهم، محيط بكيدهم ومكرهم؛ فإنه سبحانه يوهنه ويحبطه ولا بد، ويرده على أصحابه لا محالة ﴿ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الكَافِرِينَ ﴾ [الأنفال: 18]، ولذا كان كيدهم ومكرهم مهما عظم ليس له من الأثر في المؤمنين إلا أذى يصيبهم، وهو ينفعهم ولا يضرهم ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ [غافر: 25] وبالتقوى والصبر يتجاوزه أهل الإيمان ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ [آل عمران:120] فثقوا بالله تعالى وأيقنوا، وإليه أنيبوا، وعليه توكلوا ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران:160].

القرآن يوجه الأمة إلى عناصر الوحدة والاعتصام

المسلمون هم الذين صدّقوا برسالة محمد (ص)، وآمنوا بالله رباً وبمحمد رسولاً ونبياً، وبالقرآن كتاباً منزلاً من عند الله عز وجل، وآمنوا بالغيب الذي تحدث عنه القرآن الكريم كاليوم الآخر والحساب والجنة والنار، والجن والشيطان وغير ذلك من الأمور التي اخبر عنها القرآن الكريم سواءٌ مما هو كائن في المستقبل أو مما كان في الماضي، أو مما هو متعلق بما في السموات والأرض.

وهذا الإيمان هو الذي يوحدهم ويجعلهم امة من دون أمم الأرض جميعها، وعندما نتحدث عن أمة فهذا يعني أننا نتحدث عن جماعة من البشر، لهم غايات مشتركة في الحياة يسعون إلى تحقيقها، وأول هذه الغايات الحفاظ على ذات الأمة، والحفاظ على ملامحها ومميزاتها التي تمتاز بها، وعلى مصالحها التي تساعد على ذلك، فالانتماء إلى الأمة يحتم الالتزام بالحفاظ عليها، وإلا تحول أبناء الأمة إلى مرض ينخر في بنيانها ويحطم الأسس التي تقوم عليها.

وإذا عدنا إلى القرآن الكريم سنجد الكثير من الآيات التي تحثنا على ذلك، وتنهانا عن التنازع والفرقة، وعن الاقتتال والخصام، وتدعونا لكي نكون مصلحين في امتنا ومجتمعاتنا ومن هذه الآيات قوله عز وجل:

1 -﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾(الأنعام: من الآية 159)

2 -﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾(الأنفال: من الآية 46)

3 -﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾(آل عمران: من الآية103)

4 -﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾(التوبة: من الآية 71)

5 -﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾(الأنفال: من الآية 60)

إن هذا الكم من الآيات الكريمة وغيرها تدعو للحفاظ على الإسلام بل على وحدة الأمة كي تبقى قوية عزيزة منيعة قادرة على صد الأعداء، وهذا ما يؤدي إلى الحفاظ على بقاء الأمة وحفظ وجودها، ليس كأفراد فقط، وانما كقيم ومبادىء وتعاليم وشريعة....الخ.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المسلم أخ المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه ولا يحقره بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه"..

وهذا الحديث النبوي يتحدث عن حق المسلم على المسلم، وعن مسؤولية المسلم عن المسلم، وفيها وجوب إنصافه وتقديره والدفاع عنه ونصرته إذا احتاج إلى النصرة، وأن شخص المسلم وماله وكرامته محرم على المسلم أن ينال منها أو أن يسمح لأي احدٍ مسلماً أو غير مسلمٍ أن ينال منها.

إشارة القرآن إلى أهم أمراض الأمة

افتقر المسلمون في زماننا إلى مقومات النصر والتمكين، وتفشت في الأُمَّة الإسلامية أمراض أخلاقية موهنة، وفي هذه النقاط نعرض أهم هذه الأمراض التي أصابت الأمة فمنعتها من النصر والتمكين.

المرض الأول: عدم وضوح الهوية الإسلامية:

والقاعدة الإسلامية الأصيلة هي: {إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ}[محمد: 7].. ونصر الله عز وجل يكون بتطبيق شرعه والالتفاف حول راية إسلامية واحدة.. لا عنصرية.. ولا قبلية.. ولا قومية.

أما البعد عن منهج الله عز وجل وقبول الحلول الشرقية والغربية والإعراض عن كتاب الله عز وجل، وعن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم فهذا أصل البلاء وموطن الداء.

فمهما حاول أي قائد أن يحفز شعبه بغير الإسلام فلن يفلح أبدًا.. أبى الله عز وجل أن ينصرنا إلا إذا ارتبطنا به في الظاهر والباطن.. ظاهرنا مسلم وباطننا مسلم.. سياستنا مسلمة..

اقتصادنا مسلم.. إعلامنا مسلم.. قضاؤنا مسلم.. جيشنا مسلم.. هكذا بوضوح.. دون تستر ولا مواربة ولا خوف ولا وجل. ليس هناك ما نستحيي منه.. بل الذي يتبرأ من الدين هو الذي يجب أن يستحيي.

وبالنظر إلى واقعنا.. نجد أن الذي يتكلم في الدين عليه أن يكون حريصًا جدًّا وكل كلمة محسوبة عليه، وعليه أن ينتقي ألفاظه بدقة.. ويجب أن لا يكون للكلمات مرامٍ أخرى.. أما الذين يتكلمون في الفجور والإباحية فكما يريدون لا ضابط ولا رابط.. الفيديو كليب، والبرامج الماجنة، والإعلانات القذرة.. دون رقيب أو محاسب! كيف تنصر أمة فقدت هويتها إلى هذه الدرجة؟!

المرض الثاني: الفرقة بين المسلمين:

قلما تجد قُطرين إسلاميين متجاورين إلا وجدت بينهما صراعًا على حدود أو اختلافًا على قضية.. انشغل المسلمون بأنفسهم، وتركوا الجيوش المحتلة تعربد في ربوع العالم الإسلامي، وجعلوا همهم التراشق بالألفاظ والخطب -وأحيانًا بالحجارة والسلاح- مع إخوانهم المسلمين.. ولا شك أن التنازع بين المسلمين قرين الفشل.. يقول تعالى: {وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}[الأنفال: 46].

المرض الثالث: الترف والركون إلى الدنيا:

لقد كبرت الدنيا جدًّا في أعين المسلمين أجيال كاملة لا تعيش إلا لدنياها وإن كانت الدنيا حقيرة ذليلة.. عاش كل فرد ليجمع المال ويجمّل ويحسّن في معيشته.. ولينعم بأنواع الطعام والشراب والدواب والمساكن.. وليستمتع بأنواع الغناء المختلفة وأساليب الموسيقى المتجددة.. وهكذا غرق المسلمون في دنياهم.. كثير من الشباب يحفظ الأغاني الماجنة أكثر من القرآن.. كثير من الشباب يعلم بالتفصيل تاريخ حياة الفنانين والفنانات، ويعلم على وجه اليقين سيرة لاعب في بلادنا أو في بلاد غيرنا ولا يعلم شيئًا عن تاريخ وسيرة أبطال وعلماء وقواد المسلمين.. بل لا يعلم شيئًا عن أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم .. بل قد لا يعلم شيئًا عن الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه! أليس هذا مرضًا يحتاج إلى علاج.

الترف من أسباب الهلكة الواضحة.. يقول الله تعالى في كتابه: { وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا}[الإسراء: 16].

لقد وصل الترف اليوم إلى عموم المسلمين حتى وصل إلى فقرائهم! فالرجل قد لا يجد قوت يومه ثم هو لا يستغني عن السيجارة! ولا يكاد يجد ما يستر به نفسه وأولاده ثم هو يجلس بالساعات في المقاهي والكافيتريات، وقد لا يستطيع أن يُعَلِم أولاده لكنه حريص كل الحرص على اقتناء فيديو أو طبق فضائي!

المرض الرابع: ترك الجهاد:

كنتيجة طبيعية للانغماس في الدنيا، والترف الزائد عن الحد ترك المسلمون الجهاد.. ورضوا بالسير في ذيل الأمم.. وقَبِلَ المسلمون ما سماه عدوُّهم: «السلام»، بينما هو بوضوح: «استسلام.«

لم يفقه المسلمون أن السبيل الأساسي لاستعادة حقوق المسلمين المنهوبة هو الجهاد، وأن السلام لو صح أن يكون اختياراً في بعض الظروف إلا أنه لا يمكن أن يكون الخيار المطروح إذا انتُهِبَتْ حقوق المسلمين، أو سُفكت دماؤهم، أو شُرِّدوا في الأرض، أو استُهْزِئ بدينهم وآرائهم ومكانتهم.

يجب أن يفقه المسلمون أن كلمة الجهاد ليست عيبًا يجب أن نستحيي منه أو نخفيه.. ليست كلمة قبيحة يجب أن تنزع من مناهج التعليم ومن وسائل الإعلام ومن صفحات الجرائد والكتب. أبدًا.. إن الجهاد ذروة سنام الإسلام! الجهاد أعلى ما في الإسلام.. شاء ذلك أم أبى أعداء الأمة سواء من خارجها أو من أبنائها.

المرض الخامس: إهمال الإعداد المادي للحروب:

أُهملت الجيوش الإسلامية وانحدر مستواها، ولم يهتم حاكم بتحديث سلاحه أو تدريب جنده.. لم توضع الخطة المناسبة، ولم توجد المخابرات الدقيقة.. لقد تهاون المسلمون جدًّا في إعدادهم.. ورُتِّبَتْ أولوياتهم بصورة مخزية.. فبينما كانت الملايين تُنفق على القصور وعلى الرخام وعلى الحدائق.. لم يُنفَق شيء على الإعداد العسكري والعلمي والاقتصادي للبلاد.. وبينما قل

ظهور النماذج المتفوقة في المجالات العلمية والقيادية والإدارية كثر ظهور المطربين والمطربات، والراقصين والراقصات، واللاعبين واللاعبات، واللاهين واللاهيات!

ولا بُدَّ أن تُهزَم أمة كان إعدادها بهذه الصورة.. فأمة الإسلام بغير إعداد لا تقوم.. وليس معنى أن يرتبط الناس بربهم ويعتمدوا عليه أن يُهملوا المقومات المادية، والتجهيز البشري.. ولا بُدَّ أن يفقه المسلمون هذا الدرس جيدًا، قال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}[الأنفال: 60].

المرض السادس: افتقار المسلمين إلى القدوة:

تربية القدوات أهم آلاف المرات من تربية الخطب والمقالات.. الجنود يشعرون بالغربة الشديدة وبفقدان الحماسة تمامًا إذا افتقدوا القدوة.

كيف للشباب أن ينصلح حالهم وهم يرون أن القدوات التي تبرز لهم قدوات منحلة بعيدة كل البعد عن طريق الصلاح؟! القائد الذي لا يكون قدوة حية لشعبه في الجهاد والخلق والصبر والزهد والعدل لا يجب أن يتوقع من شعبه أن يحميه وقت الشدائد ولا يقف معه في زمان المصائب.

المرض السابع: موالاة أعداء الأمة:

لقد سقط الكثير من زعماء المسلمين أيام التتار في مستنقع الموالاة لأعداء الأمة، وكان منطقهم في ذلك أنهم يجنبون أنفسهم أساسًا ثم يجنبون شعوبهم بعد ذلك ويلات الحروب.. فارتكبوا خطأ شرعيًا وعقليًا شنيعًا.. بل ارتكبوا أخطاءً مركبة.. فتجنب الجهاد مع الحاجة إليه خطأ، وتربية الشعب على الخنوع لأعدائه خطأ آخر، وموالاة العدو واعتباره صديقًا والثقة في كلامه وفي عهوده خطأ ثالث.

وربنا عز وجل يقول في كتابه بوضوح: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة:

51]، وهذا تحذير خَطِر من رب العالمين.. وكم هو أحمق -أو ضعيف الإيمان- من يستمع إلى هذا التحذير ثم لا يلتفت إليه.

المرض الثامن: الإحباط:

الأمة المحبطة من المستحيل أن تنتصر، والإحباط والقنوط واليأس ليست من صفات المؤمنين. {إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف: 87].

لقد عمل الأعداء على خفض الروح المعنوية للشعوب المسلمة إلى أدنى درجة ممكنة.. لقد عظموا كل ما يمت إليهم بصلة، وخفضوا كل ما هو مسلم.. ووسعوا الفجوة جدًّا بين إمكانيات العدو وإمكانيات الأمة، وصوروا لهم أنه لا سبيل للنجاة إلا بالخنوع والخضوع والتسليم.

المرض التاسع: توسيد الأمر لغير أهله:

إذا وُسِّد الأمر لغير أهله، وضيعت الأمانة وتولى المناصب العليا في البلد أناس افتقروا إلى الكفاءة وافتقروا إلى التقوى.. فلا قوَّة ولا أمانة.. وهذه والله الطامة الكبرى!

ولا سبيل للنصر إلا بتوسيد الأمر إلى أهله.. وإلا بجعل الأمور في يد الذي جمع بين عمق العلم وصلاح العمل ونقاء الضمير وحسن السيرة.

المرض العاشر: غياب الشورى:

الشورى أصل من أصول الحكم في الإسلام، والذي لا يأخذ بها يضحي بملايين الطاقات في شعبه ويفترض في نفسه الكمال، ويخالف طريق الأنبياء، ويورث الضغينة في قلوب أتباعه، ويقع في الخطأ تلو الخطأ، وفوق ذلك كله يخالف أمر الله عز وجل الذي جاء بلفظ صريح في كتابه العزيز: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ} [آل عمران: 159].

وما نقصده هنا هو الشورى الحقيقة.. لا الشورى الوهمية التي ليس لها من هَمٍّ إلى جمع الآراء المؤيدة لرأي الزعيم.. ولا الشورى التي تغلف آراء الديكتاتور بغلاف برّاق جميل اسمه الديمقراطية.. غلاف ليس له قيمة، ولا يلبث أن يُلقى في سلة المهملات ويبقى رأي الدكتاتور!

كشف القرآن عن سنن الله في التغيير والنهوض

إن الله تعالى إنما أنزل الكتب وأرسل الرسل لتغيير الأنفس والمجتمعات، وإخراجها من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام. وهذه الآية في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ} (الرعد:11) هي قاعدة التغيير وأساسه، وهي من الكليات القرآنية التي تنبثق عنها فروع وجزئيات كثيرة. فالتغيير هو انتقال وتحول من وضع إلى وضع آخر، ومن حال إلى حال أخرى، ولأنه سنة عامة، فوجب التركيز هنا على الجانب الإيجابي منه، وهو التغيير نحو الأحسن؛ حيث قضى الله تعالى أنه لا يغير واقع مجتمع حتى يبدأ أفراده بتغيير ما بداخل أنفسهم من عقائد ومفاهيم وأفكار وأخلاق، ويصلحوا أحوالهم وأوضاعهم، فيغير الله تعالى حينئذ ما بهم، ويأخذ بأيديهم.

إن الأقوام والمجتمعات لا تتغير إلا بمغير، وهو مغير من داخلها، لا من خارجها، وهو أن تغير ما بأنفسها ليغير الله ما بها، أي تغييره من الشر إلى الخير، ومن الانحراف إلى الاستقامة، ومن الضلالة إلى الهدى، ومن الغواية إلى الرشد، ومن الكسل إلى العمل، فيغير الله حالها من الضعف إلى القوة، ومن الذل إلى العزة، ومن التشرذم إلى الوحدة، ومن الانفراط إلى التماسك، ومن القنوط إلى الأمل، ومن الهزيمة إلى النصر، ومن الخوف إلى الأمن، ومن الاستضعاف والسقوط إلى التمكين والبناء أو إعادة البناء.

يقول د. جودت سعيد: «ومن أكبر الظلم الذي يتزله الإنسان بنفسه أن لا يرى العلاقة التسخيرية الموجودة بين الإنسان والكون والمجتمع (الآفاق والأنفس)، فيهمل نفسه ولا يضعها في المكان الذي يسخر «الآفاق والأنفس» على أساس السنن المودعة فيهما.. إن تغيير ما بالنفس، سواء كان في مجال الوعي أو كان مترسبا منسيا بكل محتوى النفس الظاهر والباطن، إن هذا التغيير من مهمة الإنسان، وكلما كشف سنن التعامل مع النفس كان قادرا على إحداث التغيير، فمن هنا تتأكد الحاجة إلى ضرورة تحصيل علم سنن تغيير ما بالنفس[7] «

[7] . جودت سعيد «حتى يغيروا ما بأنفسهم»، مؤسسة دار الفكر، بيروت، ص:166-186

التغيير الاجتماعي في التصور الإسلامي إذن يحدث من داخل الإنسان وبإرادته ووفق اختياره، والله سبحانه وتعالى يعين الإنسان على إحداث هذا التغيير، فهو من يحدث هذا التغيير الاجتماعي بتغيير الأنماط القيمية والعقائدية والمعيارية، فإذا تغير ذلك انعكس إيجابيا على السلوك الخارجي للفرد والمجتمع، وبالتالي على النظم والمؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية. يقول الإمام ابن عطية الأندلسي في تفسير آية التغيير: «ومعنى هذه الآية الإخبار بأن الله عزوجل إذا أنعم على قوم نعمة، فإنه بلطفه ورحمته لا يبدأ بتغييرها وتكديرها حتى يجيء ذلك منهم بأن يغيروا حالهم التي تراد وتحسن منهم، فإذا فعلوا ذلك وتلبسوا بالتكسب للمعاصي أو الكفر الذي يوجب عقابهم، غير الله نعمته عليهم بنقمته منهم، ومثال هذا نعمة الله على قريش بمحمد صلى الله عليه وسلم، فكفروا وغيروا ما كان يجب أن يكونوا عليه، فغير الله تلك النعمة بأن نقلها إلى غيرهم من الأنصار، وأحل بهم عقوبته»[8]

إن أساس كل تغيير- وفق سنة الله الاجتماعية التي لا تتبدل ولا تتحول- هو «التغيير النفسي» أو بتعبير القرآن «تغيير ما بالأنفس»؛ فجعل القرآن علاقة عضوية وثيقة العرى بين تغيير ما بداخل النفس وتغيير الواقع الاجتماعي، خلافا لقوانين المادية التاريخية التي تجعل الإنسان كائنا سلبيا لا إرادة له إزاء قوة المادة أو قوة الاقتصاد ووسائل الإنتاج.

كشف القرآن عن معالم الجيل النهضوي الإسلامي المنشود

ذكر القرآن أنه إن لم يتمكن الجيل الحالي من النهوض ورفع عزة الإسلام، فإن الله سيبعث من الجيل الجديد الذين يمتلكون الخصائص المتميزة التي تؤهلهم إلى النهوض بناء على أساس محبة الله ورسوله. ذكر القرآن صفات وخصال جيل النصر المنشود، نذكرها هنا مختصرة:

1-جيل يؤمن بالواقعية والعلمية.

2 -جيل عمل وبناء جماعي.

---

[8] . المحرر الوجيز، لابن عطية الأندلسي، ج:3، ص:198.

3-جيل ربانية وإخلاص.

4-جيل نسبه الإسلام.

5-جيل دعوة وجهاد.

6-غرباء.. ولكن يعايشون الناس

7-جيل قوَّة وعزَّة

8 -جيل توازن واعتدال.

9-أوّابون توّابون.

يقول الدكتور القرضاوي : (ذلكم هو الجيل المنشود: ذلكم هو الجيل الربّاني الخصال، الإنسانيّ الصفات، جامعُ الفضائل، تلك هي مميّزات جيل النهضة والنصر المبين الذي استمد من دين الله وكتابه تعاليمه وسلوكيّاته متشبهًا في ذلك بالصحابة الكرام والتابعين).

ذلكم هو الجيل الذي تسعى القوى العالميّة لإجهاضه ووأده أو باغتياله وإغراءه مستنفذة في ذلك كل الأسلحة والطرق.

ذلكم هو الجيل الجدير بعمارة الأرض وخلافتها خلافة إسلامية تقوم على توحيد الله والعدل بين النّاس، جيل يساهم في تحرير الأوطان وإزالة الأوثان والطواغيت وهو الجيل الذين ينشده المفكرون والواعون ويهبه المولى الفتح والنصر المبين).

خطوات العمل من أجل النهوض بالقرآن

في القرآن الكريم، بجانب تعاليم الشريعة التي ارتضاها الله عز وجل لعباده، نجد الكثير من قواعد العمران بالمفهوم العلمي الواسع للعمران، والتي يمكن أن ينهض على أساسها بنيان متين من النهضة والحضارة.

وتشمل هذه الجوانب الكثير من التبويبات الموضوعية المتنوعة التي قام علماء كثيرون بتصنيف آيات القرآن الكريم إليها، فهناك آيات الأحكام، والتي هي من أهم ما يكون في إنهاض العمران الاجتماعي، في مجال الأخلاق والأسرة والمعاملات، وهناك القصص القرآني الذي يعطي صورة وافية عن عوامل قيام ونهوض الأمم، وكذلك هلاكها، وغير ذلك من التبويبات.

ومن بين الآيات اللافتة في القرآن الكريم عن هذا الأمر، قوله تعالى: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [سُورة "الأنعام" – الآية 161].

وفسَّر علماء ثقاة، ولغويون عبارة "دِينًا قِيَمًا" الواردة في الآية، بمعنى أنه ذلك الدين الذي تقوم بقواعده أمور الناس وشؤونهم، كما في القرطبي، وفي القاموس "المحيط" و"لسان العرب"، وغير ذلك.

وهي آية بخلاف أنها تكشف التناول القرآني لقضية النهضة بمعناها الواسع، وأهمية الدين في هذا الصدد، أي في شأن ضبط أحوال الناس بالشكل الذي يعينهم على تحسين أحوالهم والقيام بأمورهم؛ فإنها كذلك تشير إلى أن القرآن ذاته هو المعين الأول لذلك؛ حيث إن المصدر الأساسي لهذا الدين القيِّم، هو القرآن الكريم.

ويرى البعض أن إبراز هذه السمة في كتاب الله عز وجل، لا ينحصر أمام المسلمين فحسب، وإنما هو على أكبر قدر من الأهمية أمام غير المسلمين في ظل الحرب الراهنة التي يقوم بها خصوم الأمة من أجل تشويه الدين ومفاهيم العمل الإسلامي والمشروع الحضاري للإسلام بشكل عام، فهي إذا قضية دعوة في المقام الأول.

في هذا؛ فإننا نقف أمام أمور أساسية تكلم عنها القرآن الكريم، ووجَّه إليها تشكِّل فيما بينها منظومة متكاملة للنهضة والعمران، في مختلف المجالات، السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وفي الأمور المادية، التي تتضمن المعاملات وكذا، والمعنوية، التي تتضمن البنية الأخلاقية التي يقوم عليها كل ذلك.

والمجال الأول، هو العقيدة، وهو أمر مهم أن ندركه في سياق مختلف عن مفهوم أهمية العقيدة التقليدي كما نفهمه كمسلمين. فبالنظر إلى تجارب النهضة والتنمية والعمران لدى الأمم الأخرى؛ فإننا نجد أن غالبية هذه التجارب الناجحة قامت على أساس إيمان راسخ بعقيدة أو أيديولوجية معينة.

هذا الأمر يدعونا إلى إعادة وضع القرآن في موقعه المركزي في حياة الأمة، من خلال الحث على تلاوته والاستماع إليه، وحفظه، وتدبرهن وفهمه، وإلى العمل به وإلى وضعه في مكانه الصلي كالدستور الأعظم والحلول الأفضل.

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم

سيد قطب، في ظلال القرآن . بيروت: دار الشروق.

محمود الملّاح (2010)، فتح الرحمن في بيان هجر القرآن (الطبعة الأولى)، الرياض- المملكة العربية السعودية: ابن خزيمة للنشر

محمد نصر الدين عويضة، فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب جزء 9

جلال الدين السيوطي، الدر المنثور . بيروت: دار الكتب العلمية

محمد أمين الشنقيطي، أضواء البيان . بيروت: دار إحياء التراث العربي

جودت سعيد «حتى يغيروا ما بأنفسهم»، مؤسسة دار الفكر، بيروت

المحرر الوجيز، لابن عطية الأندلسي، بيروت: دار الفكر